الزمان

١٧ ــ ليس أقسى على الموجود الذى يملك الحرية ، ويحن إلى الأبدية ، وينزع نحو اللانهائية ، من أن يشعر بأن لحريته حدودا ، وأن الزمان ينشب أظفار الفناء فى عنقه ، وأن التناهى هو نسيج وجوده ! ... « ويحى أنا الإنسان الشقى ! من ينقذنى من جسد هذا الموت ؟ » : هكذا صرخ القديس بولس حينما أدرك ما فى الوجود البشرى من شر ، ونقص ، ونسبية ، وعدم اكتفاء ، وإحالة مستمرة إلى « الآخر » ! أليس الإنسان هو ذلك الموجود الزائل الذى يعيش فى الزمان ، فلا نستطيع أن نقول عنه إنه كائن . وإنما لا بد من أن نقول عنه دائما إنه سيكون ! أليس الإنسان هو تلك الخليقة الفانية التى تجد نفسها دائما فريسة للصيرورة المستمرة ، فلا تزال فى دور التكوين حتى يفاجئها الموت فتصبح ماضيا بحتا ؟ أجل ، ولكن الإنسان أيضا هو ذلك الكائن « المتوسط » الذى يجد نفسه محصورا بين الألف والياء ، بين البداية والنهاية ، بين لا وجود قبل الولادة ولا وجود بعد الموت ! إنه الكائن المدنس الذى قد جعل للطهارة ، الكائن المضطرب الذى قد خلق للنظام ، الكائن المتعدد الذى لا يفتأ ينشد الوحدة ، الكائن المتناقض الذى يريد أن يمزج ما فيه من أخلاط عديدة بنسب متكافئة حتى يركب منها مزيجا واحدا يشعره بالتكامل والتوازن والانسجام والتوافق ! ... وينظر الفيلسوف إلى الإنسان ، فيحاول أن يرجع ما فيه من تعدد إلى الوحدة ، ويسعى جاهدا فى سبيل رد ما فيه من مظاهر متباينة إلى حقيقة واحدة أصلية ؛ ولكنه سرعان ما يتحقق من أن الإنسان هو فى صميمه كائن هجين ، خليط ،

ولكن على الرغم من هذه الشكوك الحديثة فى قدرة الذهن البشرى على بلوغ ذلك الهدف الذى كان الفيلسوف يضعه نصب عينيه فى العصور السالفة، فإن هذا الهدف ما زال مثلا أعلى. ومن المؤكد أن الرغبة فى معرفة أشمل وفهم أوسع، هى بالفعل الدافع الأساسى لوجود كل فيلسوف أصيل.

الفلسفة بوصفها نشاطا يمارسه البشر أجمعون: لا يمكن أن يكون هناك مفر من هذه المحاولة للتفكير منطقيا حول تجربتنا فى مجموعها، ولجعلها معقولة بقدر الإمكان. قد يختلف الأفراد فى درجة المعقولية التى يبحثون عنا وسط التجارب اليومية المختلطة، ولكن لابد لكل منا، لكى يجد الحياة محتملة، من أن يكتشف نظاما وأحكاما ما فى المادة الخام التى تتدفق إلى وعينا ساعة بعد ساعة أثناء مضى حياتنا. فكلنا ــ حتى أقلنا ثقافة أو أكثرنا سذاجة ــ نقوم بالضرورة بجهد لا ينقطع من أجل الاهتداء إلى معنى من وراء الافتقار الظاهر إلى المعنى، ومن أجل كشف وحدة تحت التنوع السطحى، ومن أجل فرض قدر معين من النظام على الفوضى البادية لتجربتنا الشخصية ــ وهذا الهدف الأخير هو أهم هذه الأهداف جميعا. وربما كان قدر كبير من هذه الجهود غير واع أو غير واضح المعالم، غير أنه لا مفر لنا من بذلها. فبغض النظر عن عمرنا أو مهنتنا، أو تعليمنا، أو المدينة التى نعيش فيها، فإن هذا الجهد يمثل الحد الأدنى من النشاط العقلى على المستوى الإنسانى للوجود.

وهذا بعينه هو ما يفعله الفيلسوف بدوره. فإذا كانت الفلسفة، كما يعتقد الكثيرون، تمثل الحد الأقصى من النشاط العقلى، فمن الواجب أن نستنتج أن الحد الأدنى الذى لا مفر منه، وكذلك الحد الأقصى للفكر البشرى، يتعلقان معا بمهمة واحدة: هى كشف النظام والمعنى فى تجربتنا التى تنساب من لحظة إلى أخرى. أما الفارق الأساسى بين هذين المستويين العقليين فقد أشرنا إليه من قبل. فالفيلسوف يزاول عن وعى نشاطا يشغل وقته بأكمله، على حين أن معظم الأذهان تزاول عن غير وعى نشاطا متقطعا. غير أنهما معا يسيران فى طريق واحد. ومن الطبيعى أن يقطع المسافر المتفرغ للسفر شوطا أبعد، ويرى خلال الطريق أمورا أكثر بكثير، ولكن لا مفر للاثنين معا من أن يكونا رفيقى طريق. وسواء شئنا أم لم نشأ، فلا بد لنا جميعا بوصفنا بشرا، من أن نسير على نفس الدرب. أما إلى أى مدى نذهب؟ وما مقدار ما نهتدى اليه أثناء سيرنا؟ فهذا أمر يتوقف على ذكائنا، ومزاجنا، وتعليمنا. ومع ذلك فليس لنا مفر من القيام برحلة ما.